

فضيلة الحوار

نعود مرةً أخرى للصغيرة الجميلة، وأسئلتها الغريبة المشدوهة وحدقاتها المتطلعة إلى آفاق المعرفة.. تسع الكون والوجود وقصة خلق الإنسان.

أطفال عصريون - ليسوا مثلنا - وكما يصفنا شاعر منا معذب مهجور - ومثل منفي على الورق - « أتذكرين .. سعداء كنا قانعين بذلك القصص الحزين ».

أطفالنا يريدون ليعرفوا في بداياتهم منشأ الكون، وأصل الأشياء جميعاً.. وجواب الأسئلة الخالدة دفعة واحدة.. كيف ولماذا ولم؟ في هذه المرة - لم تأخذني الصغيرة على غرّة - أنا التي استدرجتها، وشدت انتباهها يمكننا التعلّم كثيراً في مدرسة الطفولة

النضرة، ونهل من نبع النقاء والطهارة والفضيلة السليمة .
يخطئ من يستهين بالطفل .. يعبره ككائن صغير ، فهو إنسان في
مشرقه إنسان المستقبل .

يجب معاملته باحترام واجب وتقدير عميق .. ورؤية مستقبلية
لتطور حياتنا .. والطفل إنسان كبير لأنه برىء حر .. نقي ، ومترع
بالوعد .

لأنه كلمة الله وفطرته السليمة لخلقها ، والقدرة المبدعة لقوى
الفهم والعقل والاكتشاف .. وليظهر حكمة الله فينا .
صغيرتي أجرب معها الطريقة التي اكتشفتها أو التي ساعدتني
هي على اكتشافها .. أجيب عن سؤالها بأقصى ما وصلت إليه من
إجابة .

آخر ما عرفته عن طريق العلم والفلسفة وهداية الأديان ..
إجابة بارقة جريئة .. غير مبتورة ولا مرتعدة أو واجفة ، والغريب
أنها ترضى ، وتقتنع وكأنها وجدت ما تبغى .. وتلك أيضاً وسيلتها إلى
المعرفة ! حتى لتبهرنى ماذا يمكن أن يدور بعقلها ؟
ماذا يعتمل في الداخل تماماً ؟

يبدو أن هؤلاء الصغار العظام قد أتوا إلى العالم مزودين بقدرة
فائقة على التعلم والاستيعاب ، بفضيلة سليمة ترنو إلى الأسماء كلها
والمسميات كما علمها الله لأوّل خلقه آدم عليه السلام .
وليعيدوا مجد الإنسان على الأرض .. الخلافة .. وليهبوا الحياة

بهاءً وجمالاً.

في هذه المرة أنا التي دعوت الصغيرة إلى الحوار والجدل .. كنت في حاجة لأن أثير معها كل الأسئلة المتأججة .

تعالى يا بنتي وشاركني المتعة المقدسة .. نستعين على الحياة بالصبر والسؤال .. نرفع وجهنا وأكفنا إلى السماء وندعو .. وسنجد برهان ربّي حاضراً .. سلى ما شئت .. وستجدينني إن شاء الله من الصابرين .

« أقرأ » لك .. يحدثنا الله العظيم في كتابه .. ينير لنا الطريق .. ويثبت أقدامنا .. تعالى نكمل قصتنا المجيدة .

- كنت والحق يقال أريد أن أصل إلى « إبليس اللعين » - أصل الشرور والمعصية - حسبت أنها تتوقف بلا شك أمام ذلك الآبق المتورد، حين أبي واستكبر؛ وتسبح الفرصة لأن أحذرهما منه .. وألا تخضع لوسوسة الشيطان - من الجنة والناس - وأعلمها كيف يقوم ناس بعمل الشيطان وينشرون الغواية والضلال .. كان هذا ظنّي أو حسن ظنّي بها .

وما أن تلوت : (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) .

ولم تدعني أكمل :

انقضت علىّ مستهولة : (وهل يقدر الملائكة على معارضة الله هكذا ؟) سبحان الله عمّا يصفون ! وفتحت أمامي ساحة الدهشة

والتعجب والسؤال الاستنكارى الغريب .
وفتح الله علينا بمثال مبسط .. يوجد أب جليل مهيب نعرف عنه
الحكمة والعدالة .. تصرف في أمر على نحو ما .. قد يبدو وقعه غريباً
ومثيراً للحيرة .. ربما عجز الأبناء عن معرفة الحكمة فيه .. وربما
منعهم الأدب والحياء من السؤال . ويدرك الأب الحنون حيرتهم -
حتى ولو لم يفصحوا عنها - ويأتيهم عطفاً متفهماً .

يحكى لهم الحكمة من وراء تصرفه وموقفه . يمكن بدء حديثه من
قاعدة أنهم ألقوا السؤال فعلاً ، وخاضوا في العجب الذى استولى
عليهم .. ثم يتولى المسألة بالشرح والتحليل وبيان ما غمض
عليهم .

الله العلى القدير ضرب لنا ذلك المثل من الحوار والمناظرة
ليجسّم لنا المعنى ويجعلنا ندركه في صورة محسوسة .

والله في عظمته وجلاله يرتضى منا السؤال دوماً ويفترضه ..
ويدعونا إليه ويقدم لنا الدليل والبرهان حتى تطمئن قلوبنا .

وكلما أنصتنا له في كتابه العزيز، نجدته يدير معنا حواراً باهراً
يدعونا للتأمل والتفكير وإعمال عقولنا، والارتفاع إلى نوره .

حتى لقد رفع موسى إلى مستوى الحوار المباشر معه .. واجتاح
الشوق موسى وهتف: ربى دعنى أراك .

ويحدد للنبي الإجابة السامية .. يسألونك .. قل والله هو القائل
القادر .. وليس كمثلته شيء ، عندما تستبدّ بنا الحيرة تتطلع إليه .

هو يريد إخبارنا بالمعنى الكامن من وراء هذه القصة بالهدف العظيم .. علو مكانة الإنسان .. وتفضيله .. وخلافته في الأرض .. حتى إن الملائكة النورانية المطهرة ليأخذها العجب من هذه المكانة وتودّ بيان حكمته .

ومحسم الله الأمر كله بـ (إني أعلم ما لا تعلمون) جواب مقنع .. وإثبات لعلم الإنسان وميزته .

كان من الحكمة تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامي .. وغوّ الفعل المباشر ، فيه غمواً عضويّاً على هيئة « حوار » ليصبح بمثابة تيار من الوعي يمسّ منا الفكر والوجدان لنفوس وراء المعنى ، ولنتبين إمكانية أن نحقق السمو والارتقاء .

الله خلق الإنسان ، ويعلم حقيقته .. تلك الروح المتأججة لديه في البحث والمعرفة .. يطلب منه أن يتدرّب على الحوار والتفكير .. حتى يصل إلى يقين ويضرب مثلاً للرسول أن يصبر على جدل المشركين ونقاشهم .

إنه الدرس العظيم يعلمه الله لنا .. نتمسك بحرية التفكير .. والتعبير حتى في شئون الكون والخلق .

بدأت حواراً مع نفسي .. حقا العقل والكلمات هي الميزة والحرية والمسئولية .. هو الذي يصل بنا إلى الله .. إلى الإيمان .. يرفعنا سبحانه - رب العزة - إلى مستوى الحوار معه .. فكيف نلغى ذلك الجزء المقدس من خلقنا ، أو يسلبه أحد منا ؟ كذلك خلق الله

الإِنسان ناطقًا وقال له « اقرأ » .. وتعلم بالقلم وعلمه ما لم يعلم ..
المسيح كلمة الله ، وموسى كليم الله ، ومحمد معجزته القرآن « كلام
الله » ولا يذ من الحوار .

الحوار مع نفسك ، وبينك والآخرين .. ومع الله وأنت تقرأ كتابه
المجيد .. هكذا فضلك وخلقك ، وجعلك خليفة . لا تطفئ ذلك النور
أبدأ ، بذلك تكون قد أثمت وضلت ومن الهالكين ولا تدع الظالمين
ليريدوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

إذا كان الله العظيم يثير فينا حوارًا ، ويعلمنا أديه ويدربنا عليه
ويأخذ بيدنا إلى نور الهداية بسوق الحجة والأدلة والبراهين .. فكيف
لا ندير حوارًا مع من يتولون أمرنا ؟ .

كيف لأناس تجبروا وعتوا .. لا يريدون لصوت أن يرتفع ؟
يرفضون ما أحله الله لنا .. ما كرّمنا به .

الحاكم المستبد يفرض الصمت والخوف .. يحقت كلّ الأسئلة ..
يسمع صوت نفسه خضوعًا وذلةً .. تتولى العزف جوقة المرائين
والمداحين والمتزلفين .. يتقيثون نشيدًا واحدًا .. مهانة وخذلان ..
توقف الحوار الخصب .. تحرقت العقول .. وتصبح أمة من الهالكين .

الحاكم المستنير ، بالحوار يهتدى .. يستمع إلى صوت شعبه ..
حديث البسطاء ، ينصت إلى غضبتهم .. ألهمهم .. حيرتهم ، قلقهم ..
يدير حوارًا مباشرًا مع الجماهير ..

خلال الحوار تتضح كثيرٌ من الحقائق .. من الأخطاء .. تبرى
فكرة جديدة .. تنطلق تلك الشرارة المقدسة وهتدى القوم إلى
الصراط المستقيم.

قَوْلًا لَيْنًا

(هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربّه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى)
تعالوا نتأمل واحدًا من المواقف المشحونة في قصة موسى عليه السلام.

أرسله الله (إلى فرعون وَمَلَيْتِهِ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
حدث التكليف الإلهي، ونودي في الوادي المقدس.. في البقعة المباركة من الشجرة (ياموسى إني أنا ربك..)، (وأنا اخترتك).

أنسه الله .. وطمان قلبه .. وأنزل الكينة على نفسه - أقبيل ولا تخف إنك من الآمنين - واستجاب الله لطلبه ورجائه - أعطاه

سؤاله - وبعث معه هارون أخاه يشد به أزره، ويشركه في أمره،
ريسانده في العمل العظيم ..

وأفاض الله عليه من نوره وحضوره .. ووعدته - ووعد الله
حق - أنه سيكون معها « حاضراً » يسمع ويرى، وأكد له أنه
الأهلى، وهو منجيه ومؤيده بنصره .. وكل ما سيلقونه أمامه من
سحر (إن الله سيبطله)

ترفق به المولى عز وجل وكلمه - بصيغة المستقبل - المفعمة
بالأمل والنور وروعة التجلى والفوز الأكيد .

« سيبطل » كل فنون خداعهم وسحرهم، ومكر السوء لديهم ؛
في ذلك الحرف « س » تكمن المعجزة، والقدرة .. والرضوان،
وشفافية الرؤية حتى المستقبل .. وإلى الدرجات العلا

٢

وتأكيد للغلبة والعزة والنجاة وهى حق لدى الله لرسله والمؤمنين .
صيغة تضمّ الزمن جميعاً، وتجعله « حاضراً »
تمتدّ الرؤى بين الماضى والحاضر، وتبحر إلى أفق المستقبل البعيد
والقريب .

الله سبحانه وتعالى يعلم أن لا فائدة ترجى من هداية فرعون ..
ويعلم أنه لن يهتدى أو يلين فله قلب جبار عنيد، وهو الذى وصفه
بقوله :

(إن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المرففين)
ومع ذلك طلب من موسى وهارون أن يقولوا له (قولاً لينا) .
يوفد رسوله إلى طاغية مستكبر ومن المفسدين .. ومع ذلك تصدر
له الأوامر أن « يصير الحديث بالرفق واللين ، وعذوبة المنطق ،
وتبيان الأدلة والبراهين » !
بل يمدّه بأصول ونماذج لأسلوب الحديث ، وصيغة الحوار المتزن
الرحيم .

(فقل هير لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى) .
(قد جنناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) (الله
الذي جعل لكم الأرض مهذاً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من
السماء ماءً) .

كان يعلم سبحانه وتعالى أنه لن يستجيب .. سيدبر وينفر ..
ويزداد غلاً ومقتاً .. سيزين لنفسه سوء عمله ، ويصدّ عن
السبيل ..

سيجمع حوله الحشود ، وينادى بأعلى صوته ، ويجهر بالسوء ..
بل ، ولقد تقرر مصيره وتحدّد ، كتب الله أن سيجعلهُ عبرةً
للعالمين ..

إلا أن ما يهمّ حقاً هو هذا الدرس العظيم من أدب الحوار ، وفن
التعامل ..

وطريقه الأخذ والرد ، واستخدام كافة السبل والوسائل

المشروعة في طريق الجهاد .. علم وفن تأخذه من القصص المحكم .. وفصلت لنا آياته .. وتبهرنا معانيه ؛ تدريب على اللياقة النفسية والذهنية لتحمل المسؤولية ، وحمل الرسالة ..

تعليم للنبيِّ واللويِّ ، وللإنسان العادي كيف يضع المبادئ والقيم موضع التطبيق . يصير هو وأسلوبه شيئاً واحداً .. هو والدعوة الحق كياناً واحداً ..

لا انفصال شبكى بين ما تؤمن به ، وطريقة سلوكنا .. وأسلوب تعاملنا مع الآخرين . غرس للأسس الأصيلة في مسيرة الجهاد .. والالتزام بالحق ، واختيار موقف العدل والحب من أجل الجميع .

٣

فن إقامة الدين ، والالتزام بهؤلاء الكلمات من عند الله . وذلك ابتداء من المحاورة إلى التفاوض ، وحتى القتال في سبيل الله .

يكون الإنسان فائقاً مهذباً مهاباً حكيماً .

المسيح عليه السلام كان يذكر الحوارين كثيراً : « لقد بعثت لخطائين ، لا بررة » الوسيلة يجب أن تكون سليمة وناصعة كنبيل الغاية .

استقامة الأسلوب والتصرف ، وهداية إلى الطيب من القول ..

وحتى يكون الرسول نفسه آيةً ومثالاً على الصبر ، وقدرة التحمل ..

فن التعامل وإدارة الحديث وتوجيه الرأى وقيادته ، والقول المدعم دائماً بالحجة والبرهان والدليل . الله الرحيم .. الودود .. يقول لموسى :

(وألقيت عليك محبةً منى ولتصنع على عيني) .
صاغه التقدير بالحب ، وصنعه على عينه ، وحلّ عقدة لسانه ..
وأطلقه بالقول الحسن المترفق - برغم غلظة ووعورة الآخرين -
وهو تعليم لنا أيضاً - تهذيب وتنقيف - نحن المخاطبين
بالقرآن ؛ وتدريب عملي لنا وخبرة في فن التعامل والدعوة .
يوسعنا أن تشعلنا المحبة الربانية ، ويشع داخلنا وحوّلنا النور
الإلهى ونكون بأعينه تفرحنا بحبته ، يمكن بها أن نصوغ أنفسنا من
جديد ، ونستلهم مواقف القرآن .. نتمثل مواقف الأنبياء والثوار
والصالحين ..

الإسلام والدين يجب أن يهذب ، منا المشاعر والنطق ، وبحكم
حركة اللسان وأى كلمة تخرج من أفواهنا ..

يجب أن يوجد فرق جوهري بين حديث المؤمن وعبارات أى
مأفون غرور . هذا الفاصل تتوقف لديه دائماً الحشود السابقة
والحاضرة تتأمل وتفكر وتتخذ موقفاً .

يجب ألا يفرض خصمك عليك أسلوبه ، وتبرّر لنفسك أنه قد

بدأ ولم يكن أمامك إلا أن تجاربه .. إنك بذلك تخسر ، ويجرّك معه إلى الخطأ ..

المواجهة تكون بالحجّة والمنطق وقول الصدق والحق .

٤

وبذلك تثبت عجزه وهوانه ، ويبقى مدحوراً مخذولاً .
الداعية يجب أن يتحلّى بالقول الحسن ، وطيب الكلام وصبر الإقناع ، وصدق الحديث .

إن القسوة والغلظة تنفّر الناس وتقطع الطريق على من يريد التعلّم والمعرفة .

لكن الكلمة الطيبة الحانية تجد سبيلها إلى القلب ، وإلى شغاف العقل ، وتعمل عملها في النفس ..

لا شك أنها مناورة سياسية بارعة ، أن تناقش أو تفاوض عدوّاً مقيتاً ، وخصماً عنيداً تعرف مسبقاً أنه لن يستجيب .. ولا يلين أو يستجيب لداعى الحق .. ومع ذلك تفنّد دعواه ، وتدعوه إلى التعقل والتدبّر وإعمال الفكر .

إن ذلك في حدّ ذاته يجعله محاصراً ، يحدّد دائرة وجوده وأفعاله .
ويعود عن كلّ من كان يتبعه وهو في غفلة من أمره .. أو لا يحيط بأبعاد أهدافه ، ويعود إلى الصواب إلى جانب الحق .

لا يهيم أن يقتنع فرعون ومن معه ولكن هذا الأسلوب في الدعوة يفيد قوماً آخرين ، وينمى لديهم تلك العادة المفيدة لتشغيل عقولهم ، وتبين مواقعهم ، وتوضح وجهة النظر التي منها يطلّون على الموقف وعلى الحياة ذاتها .

تدريب فائق على المستوى الفردى والعالم .
إذا كنت « فرداً » وتعرض للمواجهة مع قوى عاتية ..
أو للشهادة وقول الحق ، أو كنت ضمن جماعة تدافع عن قضية
مبدأ .. أو تدخل في عملية نضال مفتوح .

إن هذا الأسلوب يجعلنا نحسّ بالعرّة والثقة وصلابة الإيمان . من
تحليل الموقف ذاته ، يمكننا الوصول إلى نتيجة باهرة ..

ندخل في مباحثات أو أى نوع من المفاوضات ونكون قد أعدنا
لكل أمر عدّته ، وأخذنا استعدادنا للخطوة التالية ، ونضع تصورا
حقيقياً لما يمكن أن تتطرق إليه أبعاد القضية .

نتفاوض بالكلمات والأدلة .. والصكوك المثبتة والمشروعة ..
ويدنا على السلاح ربما .. وقد خططنا لنهاية المسرحية وأعدنا
المفاجأة اللازمة إذا لم تسر الأمور في خطّها المستقيم .

أسلوب علّمه لنا الله ..
بالحب والودّ واللين إن أمكن ؛ وبالقتال والاستشهاد إن لزم ..

ذلك أنا تعلمنا ألا نياس ولا نفرط: وكيف نصابر ونتدرب بالصبر عن ثقة وبقين أن المؤمنين والمتقين لهم الغلبة والعزة، والله يؤيدهم بنصره ويمدهم بأسباب الفوز المبين.

هو الذى يعلمنا ويدربنا فى مدرسة الجهاد الأعظم؛ وبصوغنا بكلماته.. يجعلنا « بأعينه ».. ويلطف بنا ويقص علينا من أنباء الرسل والأقوام الغابرين، ومسيرة المجاهدين.. ويضرب الأمثال ليهدينا إلى صراط مستقيم.

ربما عندما تحاور عدواً، وصوتك هادئ وكلماتك يسيرة والثقة والاعتزاز تقطر مع منطقك.. وقولك عليه لينا ربما تكشفه - وعلى الملأ - وتبدى أساليبه، ومحاط الناس علماً بما يكر، وبما يخفى من سوء.

وقد تكتشفه أنت أيضاً، وتعرف عنه المزيد. يمكن من محاورته، والمباحثات معه تحديد نقاط الضعف لديه.. والنفاذ إلى أصل الصلف والاستعلاء والغرور..

ومن أسلوبه فى التفاوض تعلم طريقة تفكيره وما عساه يفعل، وقد تجرى تعديلاً لخططك ومشاريع المستقبل لديك بناءً على ذلك.. وقد يكون الأمر « تقيية » تتقى شره.. حتى يكمل استعدادك،

وتحسم أمرك وتحوّل ميزان القوى إلى جانبك ..
وفي زمن الحوار والصراع الجدلى يمكن أن تتصاعد بمعدّاتك
وعددك وتجمع له ..

إنه عطاء ونور وفيض من الله وبشرى لنا ..
تدريب على العمل الصالح، وحسن الأداء ..
هو زادّ لنا جميعاً .. سلاح وعتاد وحصن سلامة ..
محبّة غامرة وثراءً روحى وفكرى ..
الله يعلم نبيه الكتاب والحكمة، ويعدّه للمسئولية العظمى
والاستعداد للنضال وسط قوم هم أهل الحج ومحاكاة ..
وعلّمنا الكتاب والحكمة مع الأنبياء والمختارين من الرسل ..
ندرك أننا فى كل أمورنا، وحركة حياتنا واتجاه أعمالنا يجب أن
نقيس بمقياس الدين، وننهج تبعاً لذلك المنهج القويم فى حياتنا
العامة والخاصة، وذلك هو الفوز العظيم .

إنّي نذرت للرحمن صوماً

١

يحدث أحياناً أن تشعر بحاجةك إلى الصمت .. الصوم .
تريد لتكسر دوامة الكلام التي لا تنتهي ، وتوقف طوفان
الكلمات ..

لحظات تأمل خلّاقة ومبدعة ، تنصت فيها لذاتك التي هي نفخة
قدسية من روح الله .. تتصل بذلك الحوار الداخلي ، وتغتسل بالنور
النابع من الأعماق ..

تقعد في معزل ، أو تتخذ مكاناً قصياً .. وجهتك إلى الله .. تهاجر
فيه وتلمس حكمة الأشياء والأحداث ..

بعدها تطلع على العالم ، وتواجه الدنيا بأسرها .. قوياً معافئاً تحدّد
رأيك .. وتتخذ موقفاً ، وتتواصل مع دائرة الحوار العام من جديد .

وقد تشاركك الطبيعة ذاتها فتبكي معك أو تتور، وتعود لتحس أنك جزء من هذا العالم البديع الصنع .. عافيتك أن تسلم وجهك لله .. وتوقن بالنصر والنجاة .. مادمت مستقيماً وملتزماً بالحق .. وآيتك أن الشمس دائما تعود لتشرق من جديد .. وقد تقع المعجزة وتجد برهان ربك حاضراً .. وتصل إلى البصيرة ووضوح الرؤية والحكمة .

وأخذت أتلو القرآن .. فيه شفاء وهدى .. (وتبيانا لكل شيء) هكذا قال عنه من أنزله - ولنجعله فرقاناً ومخرجاً ..

ولنقيم بيتنا - وبين الذين لا يؤمنون - حجاباً مستوراً . ووجدتني أتوقف عن التلاوة .. وتأخذني المفاجأة؛ ومضت الفكرة في ذهني بسرعة .. ها هي الآية معجزة مبهرة وحاضرة .. يعلمنا الله بها، وقد علمها من قبل أمنا مريم - العذراء البتول - التي طهرها واصطفها على نساء العالمين ..

٢

قولي : (إني نذرت للرحمن صوماً)
ونزلت على الآية برداً وسلاماً ..
« الصوم عن الكلام » من التدريبات الدينية والروحية
الملمهة ..

شفاء للنفس .. وصفاء للذهن .. وشحن للإرادة ..
أعلمنا الله بهذه « الفضيلة » وقاعليتها .. والصياغة الجديدة التي
تلفنا باتباعها .. « لحظة زمن » يتعلم فيها الإنسان شجاعة الصمود
أمام حدة الافتراء .. والجدل المهين ويجعل الحقائق تنطق بذاتها ..
وتفحم جهر السوء، وسقط الكلام .
كنت أمام - محنة مزلزلة - ليست من قبيل الابتلاء بنقص في
الأموال أو الأنفس ..

ولكنها من نوع - المصائب المصنوعة .. والشراك الموضوعة ..
وليتسلى بك - بعضٌ ولآهم الله أمرنا - ويجعلونك « فرجة »
لهم ومادة عيث وسخرية كما حدث وقذف بالتوار، ومن قالوا ربنا
الله إلى الأسود الجائعة ..

وكانت مهرجانات واحتفالات للأباطرة والقيصرة،
والمستكبرين - منذ العصور الغابرة - الطفاة السابقون والمحدثون
قد يكونون بلا موهبة .. إلا مكر السوء .. والتفنن في التعذيب وقهر
القلّة المؤمنة ..

وتتوالى فنون الكهنة والسحرة بتوالى العصور والأزمان ..
« نصب الفخ » وانتظروا كيف يكون البكاء .. والعذاب ..
وحرقة النداء والألم .. أمام الامتحان - « تذكرنا » .. لنبصر بعد
المسألة .

وجاءتنا الآية مشعة موحية .

(فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً
فلن أكلّم اليوم إنسياً) وما تساوى « عذاباتنا » أمام ابتلاء
الرسول والأنبياء .. والشهداء وأولياء الله الصالحين .. !

٣

شملتني العزة .. وغمرتني المحبة وحصنتني الثقة ..
وتأسياً - بألم النور - نذرت للرحمن صوماً ..
لا .. لم تستبد بي المخاوف .. ولم تأخذني المفاجأة ، لا صراخ
ولا عويل ..

ولم نسع إليهم ونضرع لهم .. لا لم تختل حركتنا أو انعدم الوزن
لكياننا . ولما بدأ العرض المثير .. وجدوا منا صوماً وصمتاً ، وتباتاً ..
رفعتنا المناجاة إلى رحاب أعلى ، وتعلقنا بمدد السماء .. ولم تنزل
إلى حمى الجدل والدفاع ..

وهكذا صرف الله عنا كيدهم ، وجعلهم في الأذلين والأخسرين .
تبددت الخطة .. وخاب هدفها .. وسارت الأمور - على غير ما
توقعوا - وذهبت ریحهم .

« الصوم عن الكلام » تدريب باهر حقاً
أعلمنا الله بهذه الوسيلة ، وجربها أمامنا وأوردها لنا كأسلوب
ناجع ودواء لأعنى العضلات .

« هدنة مؤقتة يهذب فيها المرء جوارحه .. ويستجمع نفسه .
ويتأمل حقيقة الحدث . ويظهر « نطقه » ومنطقه ..
لمواجهة المحاجاة الظالمة - والذين يلون ألسنتهم بغير الحق -
ويلبسون الحق بالباطل ..
(فقولى إني نذرت للرحمن صوما) .
هكذا قال الله لمريم - التى جعلها الله وابنها آيتين ..
أعلمها بما تقول وتفعل فى حدة الأزمة ، وذروة الموقف المهيّب ..
وابتلاء المحنة ..
لَقَنَّا مَاذَا يَكُونُ تَصَرُّفَهَا وَسُلُوكَهَا ، وَجَعَلْنَا أَمَانًا آيَةً وَنُورًا ..
وهدايةً للسلوك الصحيح ..
ماذا تقول حقاً عندما يسعى إليها القوم مستنكرين .. وبخوضون
فى حديث جارح ومهين .. ؟

٤

بل وتنقطع كثيرون .. ويا أخت هارون .. لقد جئت شيئاً فرياً ..
(ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) .
ستسمع العذراء الطاهرة التى نذرتها أمها لخدمة الله ، المتبتلة
لربها .
ستسمع العبارات الجارحة .. والإيماءات القبيحة .
فلما أحست بما ينتظرها - تمنّت الموت - قبل أن يحدث لها

هذا.. ولو أنها كانت نسياً منسياً..

فعلّمها ربها - ونحن معها - نسمع ونرى..

ودرّبها لرسالتها النبيلة.. وأحسن إعدادها لتحمل تبعه الجهاد في

سبيل الله. فقبرت عينها وهدأت نفسها..

وأجملت القوم عنها..

(إني نذرت للرحمن صوماً).

تصوم لله، والله بالغ أمره.. وفعال لما يريد.. وجاعل للمسيح

آية ومعجزة تتخذ موقفاً جليلاً ومهيئاً؛ وهكذا جعل الله لها فرجاً

ومخرجاً.

تصرف يتسم بالرفعة والسمو « وهو من عند الله ».

وسلوك يترفع عن اللغو والتجريح.. لن تكون طرفاً في جدل

سقيم.

ولا بحاجة ظالمة..

المفاجأة التي أعدتها لهم وستفت في عضدهم.

علوها وثباتها.. وصمتها وصومها..

وبذلك تصدّ جحافل الظلام ونعيق اليوم.. وتسقط أعلام

اللاتهام.

وتوقف نزيف الكلمات البغيضة في حلوقهم.

ماذا يفعلون أمام الصمت والصوم.

يزعقون حيناً.. يكررون ما يقولون.. وفجأة ترتد سهامهم إلى

نحورهم لا يدرون ما يصنعون .. تختل حركتهم ، ويفقدون أترانهم ،
وتدور دائرة السوء عليهم .. وتدخل القسمة بين صفوفهم : بين
مصدق ومكذب ومرتدد ، ومندهش ..
يجدون أنه قد فرض عليهم موقف مغاير تماماً ، وعليهم أن
يعيدوا حساباتهم .

٥

والتفكير والتدبر ..

ماذا يعني الصمت .. وكيف السبيل إلى الصيام ؟

وما معنى الثبات .. وعدم الانهيار ؟

ينشغلون بأنفسهم ، وترميم مكيدتهم .. وتصدعها وخذلانهم ..

وينجو الصالحون ، ويزدادون إيماناً وثباتاً وسكينة .

« وذكرياً » عندما دعا ربه أن يجعل له آية أمده الله بالجواب :

(آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام) .

هو أسلوب للمجاهدة إذن .. وقاعدة للنضال ، وصياغة من أجل

الجهاد . نصوم أياماً عن الكلام ..

تظهر وتقرب من الله ، واتصال بحبله المتين .. نسيح له ونذكره

كثيراً ، ونتعلم من كتابه ومحبته وعلمه العظيم ..

ندعوه بأسمائه الحسنى .. فنتمثلها في أنفسنا .. ونترؤد منها في

التقرب إليه ؛ والمسيرة إلى النبيل والنقاء والاستقامة .

نعود إلى العالم .. وقد تطهّرنا ، وتزوّدنا بفضيلة الحكمة والتأمل ..
وتدرّبت جوارحنا وامتلكنا ناصية ألسنتنا .. فلا نتلق إلا حسناً
وصدقاً وحقاً .

تدريب خلاق على المستوى العام والخاص . قوى كامنة لدى
الفرد والجماعة ..

تستطيع أن تلهم خطونا .. وترسم استقامة الطريق أمامنا ،
وتحدّد العمل الصالح وجهتنا وغايتنا ..

لماذا لا نتدرّب عليه جميعاً ، ونعود خير أمة أخرجت للناس .
نحن أتى علينا حين من الدهر ، كان « الكلام » يفيض في
الأزقة والطرقات .. طوفان يفرق كل شيء ، ويغطي على كل
الأشياء .

٦

كلام أجوف كثير .. وملق وضجيج ونفاق ..
حتى فقدت الكلمات معناها ، وكنا نعرف جميعاً أنها بضاعة
بائرة .. وأنها مجرد ذرٌّ للرماد في العيون .. يوقف الرؤية والحركة ،
وحرية الإصلاح .

وشجاعة الإقدام .

لم نجرّب أبداً ذلك الدواء الشافي والعلاج .

نصوم للرحمن يوماً أو بعض يوم عن الكلام والهتاف .

عن الجهر بالسوء .. ودوامه التصريحات والإعلانات والوعود
وفنون الخداع ، نصوص عن القول والخطب الرنانة والكلمات
وبالونات التضخيم والإيهام ، نعمل ، وتندرب . ونصوغ أنفسنا من
جديد بوسائل الرحمن .

نصوم كأفراد وإدارة وأمة ..

يكتب في كل الدفاتر .. والأضابير .. والمنشورات ..

يفرض على كل مستول الصيام عن التصاريح .. والتلويح ..

وزيف الكلام .. والتبرير .. والتهوين .. ولوى الألسنة والكلمات ..

ليدع كل منا عمله أن ينطق .. ويدل عليه ويبدى لنا حقيقته

وأسلوبه ، وعندما تتكلم الأعمال نعرف أننا اهتدينا ، وترفعنا

الأعمال .

من ديارنا وأبنائنا

الحق أقول لكم : هزنتي العبارة الربانية الباهرة، وتوقفت لدى إعجازها.. مدى ثرائها وتركيزها، وبلاغة وسحر بيانها. شملني نور أخاذ وهج ينفذ إلى القلب والعقل معاً.. وكأني أتلوها للمرة الأولى جديدة تماماً. طازجة مازالت بعد دافئة كأننا في أيام التنزيل الأولى.. وفي مواجهة نفس الأسباب التي اقتضت حكمته ورحمته أن ينبثنا بها. وهكذا عندما نأخذ ما آتانا ربنا بقوة.. نكتشف في كل مرة شيئاً جديداً متوهجاً ساطعاً، فنحن أمام نبع لا ينضب.. ومعنى لا يهرم وكنز لا ينفد أبداً، ونور يبقى سرمداً. وطوبى لمن يشتغل بطاعة الله، ويعمل عملاً صالحاً ويقول للناس حسناً.

(قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا
وأبنائنا) .

استوففتني العبارة البليغة معجزة في البيان ، وآية في الأداء ورسم
الحركة وروعة التصوير .

واه من الخروج من الديار ، والأبناء . ويا لعذاب تشريدنا ..
وسبى أولادنا ونفينا بعيداً عن الديار والعيال .

فما بالنا ألا نجاهد في سبيل الله ، ولا نجتمع على أمر بيننا
أو نتوحد أمام المأساة !.

وحتى نرد هوان « الخروج » ومذلة التردّي ، وحسرة الخذلان .
ولكن هل هو جهاد في سبيل الله حقاً ؟

كثيرون سيلقون السؤال .. وحتى يشغلنا الجدل والخلاف ندور في
دوامة الفتوى والقياس اللفظي ومدلول الاستدلال .. ربما نجد ثغرة
نفذ منها ، ونبرر بها تقاعسنا ومرارة الإذبار والفرار .

وحسم القرآن هذه القضية :

فليس الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الدين فقط .. لكن الله
الخالق الرحيم جعلها أعم وأشمل ، أكثر اتساعاً وسعة .

فالدفاع عن النفس والأرض . والعرض ، والذود عن الحرية
والكرامة كلها - في سبيل الله -

الدفاع عن الحقيقة بشتى الوسائل وحسن الاستعداد والعمل
لهذه الغاية .. وشهادة الحق بأحقية الناس في أرضهم وخيراتهم وأمنهم

على الديار والعيال - كل ذلك في سبيل الله - فلا شك أن الغاصب سيؤذى الناس في حركة حياتهم عامة: سواء الدينية فيها أو الاجتماعية والسياسية.. يفرّق وحدة الصف بينهم، وتتمزّق الصلات والأخلاق ولا يعودون أمةً، وهو يفتنهم عن دينهم، ويسلب الثمار والعيال.

لذا فالمؤمن حقاً لا بدّ أن ينهض للدفاع عن أمته وكرامته، بيته وقوت أولاده ومستقبل إخوة له .
وهو في سبيل الله .

(أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)

فماذا ننتظر لنعد العدة .. ونجعل إيقاع الحركة كلها في مجتمعنا من أجل الوقوف بجانب الحق، وغاية استعادة الأرض والحرية، والتدريب على حسن الأداء؟

ابتداءً من الدرس .. إلى الزرع .. إلى الإنتاج .

عشنا ظروفًا صعبةً وأياماً عسيرة، ورأينا « الخروج » من الأبناء والديار - رأى العين - وجفّت حلوقنا بالمرارة والأسى .
وقفنا « مصلوبين .. هكذا » على بوابة الجحيم .

لم يكن أحد منا بعيداً أو غائباً؛ بل حاصرتنا جميعاً السنة اللهب، وفاجعة المذلة ..

وحقّ فيما بيننا كان يتمّ « الخروج » ونحن داخل دورنا .
فالعُدو الغاصب لا يكتفى بالقتل والتشريد والإبادة .. إنه يفعل

ذلك ليروع الآخرين ، ويحذرهم ويبذر بذور الجبن والخوف بين جنوبهم . ولكن لديه أيضا أساليبه « الخفية » التي تليق بحضارة القرن العشرين ..

أحيانا لا يستولى الغاصب على البيوت والجدران أو يدكها . بل هو « يستبيح الحمى » يجعلها خاضعة له .. مثقوبة السقف والأعمدة . يحيطها بأسلاك من « الخوف » .. ينظر داخل « خصوصياتها » ويعتلى سطحها - ويهيم على توجيه الحركة داخلها - والعبث في « جوانبتها » .

لا يخرجونك - ظاهريا هكذا أو ماديا - لكنهم ينالونك وأنت داخل دارك ، وحولك عيالك وفي عمق الحجرات .
ياسرون أبناءك .. يعتقلونهم - أمام عينيك - وعلى مشهد منك يفرغونهم من الحب والانتباه .

يستأصلون لديهم قيم الدين ، والمحبة في الله .
يطلقونهم « وحوشا يريثة معذبة » .

فهل الأمر - بعد ذلك - لا يعنيك .. والخروج المهين لم يصل إلى أعتابك ؟

أم أن الخطر شملنا جميعا - كأمة - والحصار أحاط بنا ..
وواجب علينا اليقظة واستنهاض الهمم .. والحث على الشجاعة والعزم والعمل الدائب من أجل الإصلاح ، وإحقاق الحق وإشاعة العدل والسلام ..

هي قصة قوم من بنى إسرائيل - أخرجوا من ديارهم وأهدوا
عن أبنائهم. فمروا أن الجبن مذلة وعار وضياح .. وأن إيثار
السلامة « وحذر الموت » لا يقيهم أو يحصنهم من ويلات العذاب ..
بل هو موت أقسى وأمر؛ إذ هو يولد في النفس الهزينة والانكسار
ويجلب المذلة والهوان، ويفقدهم الحرية والكرامة والاستقلال.
« الخوف » .. والجبن .. والتردد ..

موت كل يوم ألوف المرات .. ويوقعهم في تنكيل عدوهم بهم
وقهر التبعية والاستعباد.

وعلم هؤلاء القوم أن لا بد من القتال.
واجب الدفاع عن الأهل والأرض، والشرف ضرورة - وفي
القصاص حياة - القرآن لم يعين لنا القوم .. ولا الزمان أو المكان ..
ولم يحدد الشخصيات - ولو علم أن لنا خيراً في التعيين لتفضل
علينا بذلك - كما يقول شيخنا الإمام محمد عبده .

وقصص القرآن - ليست كروايات التاريخ - تذكر الموقع
والعصر والأبطال، أو تعنى بكافة التفاصيل والجزيئات.

التفاصيل ليست مهمة، ولا تضيف شيئاً لموضع العبرة من
القصة .. بل ربما تشغل الذهن عنها، وتصرفه عن استيعاب المعنى
الحقيقي من قصتها. « وهو منهج حكيم في كتابة التاريخ والمسرح
علينا تعلمه من القرآن ».

ما يهم هو « الحدث » .. أو الموقف وتأمل المعنى .. والحكمة

فيه .. والتوصيل إلى « لحظة التنوير » المتبعة منه حتى نستلمه
العبرة والعظة .. ونستوعب الدرس المستفاد منه ..

بعد ذلك يمكننا أن نجعل أسلوب حياتنا أنبل وأفضل، ونقيس
بمقياس الدين الظروف المحيطة بنا .. والأحداث من حولنا .
ولنعد لحال القوم الذين يخبرنا الله بنبيهم .. عندما أخرجوا من
ديارهم وأبنائهم ..

وعلينا التذکر بشدة - نحن جموع المخاطبين بالقرآن - إن تلك
الأمثال إنما ضربت لنا لتتخذها مثالا وتفيد منها، ونطبقها على واقع
حياتنا نقيمها ونعمل على غرسها داخل نفوسنا وأرضنا .. ولنحیی
بها الأرض والقوم البور بيننا .

علموا إذن أن القتال ضرورة . وواجب الدفاع عن الحق
واسترجاع الديار والأبناء واجب، والتمسك بفضيلة الشهامة
والشجاعة مفروض ومؤكّد .. والعودة إلى الله يقتضى الإعداد
للجهاد والتجهيز له وبذل الأنفس والأموال ..

ومحاربة الاستغلال والفساد جمع لشتات الأمة .. وتوحيد للقلوب
والطاقات .

يخبرنا القرآن أن هؤلاء القوم عندما علموا ضرورة الجهاد
واستعدوا له - طلبوا من نبيّ لهم وزعيم - أن يقودهم لجهة القتال
في سبيل الله - وذكرهم بموقفهم المخزى قبل ذلك وفرارهم ،
وادعائهم المحيطة والحرص - حذر الموت - وتوقع الجبن منهم

والنكوص والفرار، لكنهم أبدوا دهشتهم وعجبهم .. أتى سبب يدعوهم ألا يقاتلوا ، وقد وجد سبب القتال - ويعلمون أنه أيضاً في سبيل الله - سبب حيوي وخطير، لا يمكن تجاهله أو الإغضاء عنه .. أو تيريز التردد.

أى سبب يدعوهم ألا يناضلوا .. وقد أخرجوا من ديارهم ، وفراق أبنائهم بالقوة والقهر والاستعباد.

إن الأمم في حاجة إلى دفع الهلاك والعدوان عليها .. والجهاد ضرورة أمام البغي والاعتصاب.

وصلوا إذن إلى هذا الاستنتاج الصحيح .. ووضحت الرؤية لديهم وأيقنوا بضرورة العودة إلى طريق الاستقامة والعزة .. طريق الله .

ومع ذلك عندما جاءت اللحظة الحاسمة ، ودارت المعركة .. فرَّ كثيرٌ منهم وأدبروا ، وعادوا لسيرتهم الأولى من الجبن والإحجام . وعادوا للجدال ومعارك الكلام ، والمبارزة اللفظية والحجج ومقولات التبرير .. ولم تثبت إلا فئة قليلة فجاءها نصر الله .

وهكذا يعيد « الدين » تربيته من جديد .. ويعطينا معنى أعم « للجهاد » ويبين عقاب الأتقوان التي تجبن وتراخى .. وإمكانية النصر والغلبة للفئة القليلة المؤمنة التي تلتزم بقيم الشهامة والشرف ، وتجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله .